محمــد الأسعد

أربعة فصول من رواية
أصــوات الصــمت*

" أيها الغريب ... "
قالت آندروماكي وهي تطحن الملح على جانب الطريق
" ... إذا أخبرتني من أي وطن أنت ،
سأقول لك كم أنت حزين "

أغنية طروادية

1

لم يعد الأصدقاءُ يعيشون في حجراتِ البيت الخشبية المطلة على البحر، ولكنني أسمع أصواتهم في أحلامي حين يستلقون على أسرتهم أو يغادرون أو يتجمعّون في آخر الصيف عائدين من برلين أو بيروت أو دمشق أو قبرص.
عاطف يرتدي دشداشة سوداء ويقول لزوجته إنه ذاهب إلى بقالة قريبة ليشتري تبغا، وبعد يوم أويومين يهاتفها من مدريد.
علي الطشّ يصادف أحمد النمّول يتلصص حاملا بندقيته في زقاق من أزقة الشياح في بيروت فيفاجئه هاتفا، ماذا تفعل هنا ؟.
وينمو ذلك المتوحد من الكرمل مثل شجرة في تجويف اتخذه مأوى ولا يتكلم إلا نادراً .
ويتكيء أبو عواد في سريره صاغياً إلى أصوات رحلته الأخيرة تنبعث من شريط تسجيل.
ويردد الميتُ بصره بين المتجادلين ولا يفهم ماذا يقولون.
وخلال ذلك تواصل عصافيرالسدرة الوحيدة زقزقاتها في باحة البيت وفي كل الحجرات، ويصل صوتها إلى البيوت المجاورة، ويخرج الكثيرون من هذه الحكاية، ويتلاشى كل أثر يقود إليهم أو منهم.
أنا بحاجة إليهم الآن لكي أبدا حكايتي، وهم بحاجة إلي، ربما ليعودوا إلى الحياة مرة أخرى، ربما لألتقطهم واحداً فواحداً، أحياء أو موتى، سواء بسواء، والتقط أصوات العصافير التي لاتهرم في الحكايات، مثلما لايهرم الناس، لايبتعدون، لايخرجون، لايموتون، ما أن نلمحهم من شرفة أو على شاطيء بحر أو نمر بهم في مقهى .
" الكل حاضرٌ كأنما في سفينة تتجول إلى الأبد ولكنها لاتتوقف في أي ميناء "
كان هذا هو ما كتبه مجهول والتقطه عاطفُ وكتبه على ورقة بيضاء بخط أحمر حاول أن يجعله أنيقاً، وعلقها على الجدار وراء سريره، فظلت شاهدة على غيابه.
أما صاحب التجويف فتمنى أن يأتي يوم ينسج الناسُ فيه حياتهم كما تنسج الحكايات، بمجرد الذكرى، والذكرى وحدها، بلا ألم ولا حسرة، ولا دموع غير دموع البهجة، ولا شجن سوى شجن أنهم كانوا معاً.
وأضاف أحمد النمّول في وقت متأخرقبل أن يغرق في مستنقع غابة على حدود تنزانيا :
" ستروي حتى الأمكنة حكاياتها هاربة من الموت، كما ستفعل أنت ياصديقنا الرسام، وتفعل الوعول فوق المرتفعات اليمنية، وعصافير الدوري التي ترافقنا أينما ذهبنا "

11

هاهي الشقة التي هجرتها في البناية المطلة على حديقة البلدية مباشرة، وأمامي إذا نظرتَ من الطابق الثالث يمتد صف طويل من أشجار النخيل الهندي؛ جذوع طويلة ملساء رفيعة، وتيجان من ورق يشبه المراوح الخضراء المدببة الأطراف تتدلى تحتهاعناقيد بذورسمراء غامضة. حتى الان لاأعرف بماذا تفيدنا هذه المراوح والعناقيد، ربما كان لها شأن في بلادها الأصلية على شواطيء الجزر النائية شرقاً، أما هنا فتبدو ماثلةً بلا معنى، اللهم إلا معنى الامتداد عالياً على رصيف شارع تجففه الشمسُ ولا يعرف المطر إلا نادراً.

هذا الصفُ الطويل الآن سامقٌ يتجاوز طولي بأميال كما يخيل إليّ، يذكرني بأفياء مررتُ بها في طفولتي وأمكنة أجهلها، ولكنه لم يكن آنذاك سوى شجيرات أمرّ بجانبها وأنا في طريقي إلى حيث لاأذكر أين كان ينتهي الطريق، إلى المجلة أم إلى السوق أم إلى مقهى على سطح مبنى ينتظرني فيه صديق يصطاد رزقه بالنباطة، ويحنقه أن الطيور تطير مسرعة فقط إلى من يحملون الشباك.

لم تكن الشجيراتُ آنذاك تتجاوز خاصرتي طولا، ولهذا كثيراً ما مررتُ على رؤوسها المروحية المنحنية براحة يدي، هكذا لمجرد لمسها غير واع أنه سيجيء يوم أسير فيه تحت هذا النخيل ذاته هرماً ضئيلا أتذكر شظايا من ذلك الماضي، أحاول تجميعها ورصها بحنانٍ لم أكن أمتلكه في تلك الأيام.

يقول ناسكٌ يجلس في مكتبتي محشوراً بين مئات الكتب :

" الأمر المهم أن يدخل الإنسانُ في قلب الحجر، أن يرى العالم بعيونه "

وأقول:

" ولكن ليس في قلب شجرة، شجرة تمر هندي طويلة نائية يصعب الوصول إليها. كيف أدخل فيها، هي العالية والنحيلة؟ كم هو بعيد العالي والناحل! لو كانت ممتلئة ويمكن لمس أغصانها المروحية ربما كان باستطاعتي الدخول، أي العودة ثلاثين عاما إلى الوراء. كلما مرّ بنا الزمن عابراً إلى الماضي دائماً، وكلما خفت صوت ضجيجه في أسماعنا، احسسنا بالخواء أكثر فأكثر، نحن نتجوف ونمتد مثل الظلال، نتحول إلى قصب لن يصلح إلا لتصفر فيه الريح "

فيتمتم الناسك متحسراً :

" مؤسف أن الإنسان ينضج ويتحول إلى ثمرة ريانة، ثم لاتكون صالحة إلا للسقوط في العتمة"

هذه الشقة لم تكتمل فيها الحياة، أو هكذا أراها الآن بعد أن خرجتْ منها الأحاديث والشخصيات، المركز الرئيس يقع في مكان آخر، ليس مكان العمل في المجلة بالتأكيد، وليس الأسواق، ولا شارع الجهراء المكتظ بالعابرين صباحاً ومساءً، ولا المطاعم المنتظرة تحت أعمدته عند كل لفتة أو إيماءة، بل في ذلك البيت المطل على البحر وسط صف بيوت تماثله، بطابقيه الطويلين، وجداره الأبيض، وقضبان نوافذه السوداء، والبلى الذي يأكل أسافله، ويستدير إلى بوابته، ويقتحم باحته، ثم يتحول إلى حبال غسيل مهترئة وجرة ماء مخروطية ضخمة لايرشح منها الماء وسدرة بيت معتمة متشابكة الأغصان، وينتشر في الغرف السفلية وعلى ملابس سكانها، ويصعد إلى الطابق الثاني حيث المزيد من الغرف والحنايا، والمزيد من الجص المتساقط من الجدران.

هنا المركز، في الطابق الثاني، في غرفة طويلة واسعة تزحمها على الجانبين، حين تكون خاليةً من سكانها، أسرةٌ من كل نوع، خشبية وحديدية، وتطل منها نافذة وحيدة تآكل إطارها الخشبي على سطوح بيوت طينية منخفضة تتناثرعليها صناديق خشبية قاتمة وإطارات سيارات وألعاب أطفال مهجورة يتلبد عليها الغبار، ويتلألأ في أعلاها زبدُ أمواج البحر حين يرتفع البصر.

كل هذا يختفي حين يتوافدون، ويتركز النظر على آنية الطعام، أوالكتب التي يعتني بتجميعها أحمد النمول عناية تفوق حجمه أو دخله الضئيل من عمله في صحيفة شهرية لايقرأها أحد، أو على مشهد علي الطش وصوته العالي وهو يتنقل من مكان إلى آخر بلا فكرة عما يفعله بحياته أو عضلاته أو عقله الساذج، أو مشهد أبو عواد متمددا على سريره كأنه يتموج على ظهر زورق أو سفينة حالماً برحلات بحرية ونوارس في أقصى الكرة الأرضية.

لم يكن هؤلاء وحدهم سكان البيت، أو هذه الغرفة، فهناك ذلك الذي إختار تجويفاً في جدار عند منعطف الدرج بعيداًعن ضوضاء الغرفة وسكانها، وبناه، ولاندري كيف، من سرير ومقعد واطيء ورف من معدن قاتم يكتظ بخزفيات بلغارية وتماثيل خشبية هندية، وجدارتآكل طلاؤه الأبيض تلتصق عليه بلا انتظام بضعة رسوم لناجي العلي تتزاحم فيها الكروش المتضخمة والعيون البلهاء والوجوه النحيلة لفقراء المخيمات، وجلس هادئا متربعا على سريره يسرد عليّ ذكرياته وأراءه في الحياة وسكان الغرفة، وبما يبتغيه من حياته، ومن هذا الكون الذي يود أن يصل إلى أبعد نقطة فيه .

وهناك ذلك الصحفي الزائر، صاحب علبة لف التبغ اليدوي الفضية، القادم أحياناً حين تدفعه أكوام كتبه إلى خارج غرفته في الطابق السفلي، ويدفعه الفضول، فيحتل مكانا على طرف سرير ويتحدث عن كامو أو سارتر إلى بسطاء تنفتح عيونهم دهشة وأفواههم أيضاً وهو يحاول بلهجة قاطعة إثبات أن حياتهم عبث في عبث ولا خلاص إلا بالتمرد على كل شيء.

وهناك جمال عامل البناء النحيل الذي يتحدث دائماًعن ظهيراتٍ ناعسة بين أشجار القرى التي تجول فيها صبيا يبيّض أوعية القرويات النحاسية، حتى ظل يبدو وكأن شمس ظهيرة تظلله دائماً، سواء حملته سيارة أو وقف على سقالة مبنى أو دخل الغرفة صارخاً أو جلس مستكينا صامتاً يحتضن مخدة سريره.

وأخيراً هنالك زائرٌ أطلقوا عليه تسمية أبو القشب بسبب تكراره لهذه الكلمة كلما تذكر طفولته وهو يرعى الغنم في الوعر القريب من جنين . كان أبو القشب مصورا صحفياً تهبط به عادته القديمة في رعي الأغنام إلى ظهيرة مضجرة تفصل بين وقت العمل صباحا والعمل مساء فيأتي إلى الغرفة مدفوعا بالفضول أو الالتصاق ببعض من هؤلاء القادمين الذين لايتخيلهم إلا قادمين من الوعر نفسه، فيستلقى على سرير أحدهم، أو ينصت جالساًعلى طرف صندوق، أو يلتقط صوراً لأرجاء الغرفة تتغير مع تغير المشهد بين لحظة وأخرى حين يعود من يعود ويذهب من يذهب، أو حين يتجمع من يتجمع حول مقلاة أو إناء طعام، أو يتناثر من يتناثرفوق هذا السرير أو ذاك، ممسكا بكوب شاي أو مشغولا بتقليب صفحات كتاب أو ساهماً مثل ذلك الذي اطلقوا عليه اسم الميت حين قدموني إليه لأول مرة .

حتى الان مازلتُ أرى الميت، بائع خردوات السيارات، في لقطته المتحركة، يتطلع في وجوه من حوله كأنه يحاول أن يتذكرشيئاً، ثم يسأل سؤالا يثير الضحكات من حوله، ويصاب بصمتِ حائرٍ لايعرف أين يمضي به، فينظر إليه أبو القشب نظرة إشفاق ومودة، يضع عدسة تصويره جانباً ، ثم يربت على كتفه .

كلاهما في الهم سواء، هذا ببلاهته المؤكدة، وذاك بلقبه الذي لاينساه ولايترك أحدا ينساه.

1V

هذا هو المركز إذن، أو البيت، أو الفيلا كما اعتدنا القول حين يسألنا أحد أين الملتقى، إو إلى إين نحن ذاهبون، وهذا هو محور الحكاية التي بدأتْ بفكرة مسرحية يقوم سكان الفيلا بتأليفها ويتوزعون أدوارها، ويبحثون عن مسرح لعرضها، ويتبرع كل واحد منهم لبنك الدم بشيء من دمه لسداد المصروفات ودفع ثمن ملابس الممثلين، ويحاول أبو القشب ابتزاز بضعة دنانير من صاحب الجريدة عارضا عليه صور أصدقائه النادرين أمام الشاحنات أو على ضفاف البسفور، ويمد صاحب التجويف يده في جيبه مخرجا ليرة عثمانية ذهبية ورثها عن أمه، بينما يكتفي جمال بوعد أن يتبرع بأجرعمل يومين حتى يشاهد نفسه على المسرح ولو لبضع دقائق بشرط أن يرتدي ملابس الفدائي ويحمل بندقية، وسيأتي دوري لاحقاً في هذه المسرحية بعد كل هذه السنوات لألتقط، كما من الهواء، شخصياتها وأحداثها، وأعيد كل شيء إلى مكانه، واقفا أمام البحر الذي خلا إلا من بضعة أشجار سدر متناثرة بلا مأوى.

نحن معتادون على أن نبدأ بالموجود في مقدمة الصورة، ثم ندخل معه إلى أن يتلاشى في أفق نفترض وجوده هناك في أعماق الصورة. ولكن هاهي مسرحية غاب أبطالها وغاب المكان ذاته بالمعنى الحرفي، أي أنه اختفى من على وجه الأرض، وصارت النظرة إليه بحكم هذا الغياب نظرة طائر يرى بدايته ونهايته، ويلم بأطراف الأزمنة في وقت واحد معا، نظرة من رأى كل شيء رغم أن أي بلد لا يذكره الان، وتسربت مياه الشاطيء إلى أخشاب سفينته المهجورة، ونمت الأعشاب في شقوقها.

رحل الجميع إلى آفاق مختلفة.

بعضهم بثياب طائر، وبعضهم بثياب بحار، وبعضهم بثياب فدائي، وبعضهم بثياب غريق، وبعضهم بقبعة متشرد عريضة يجلس الآن في مقهى من مقاهي عمّان ويزعم وهو يرد عليه أطراف معطفه الأسود الطويل أنه حفيد مركيز فرنسي قطعت الثورة الفرنسية رأسه.

الوحيد الذي ظل قابعا ربما في الفراغ من دون أن يتلاشى حتى الان هو وكيل صاحب البيت، جامع الايجارات البدين في غرفته المترفة المجاورة لغرفتي في الطابق الأول وراء آلة الطباعة البدائية، يطبع باصبع واحدة قائمة الايجار الشهري التي لايوجد في دماغه سواها، يعيد تنظيمها، يرتبها، يبتكر في كل شهر مادة يضيفها إلى القائمة، فمرة يضيف أجرة هاتف، ومرة استهلاك مسحوق غسيل، ومرة شراء حبال غسيل .. إلخ. وما أن ينتهي من الطباعة حتى يخلو دماغه من أي شيء، فيتحرك ويبدأ بطرق أبواب الغرف بابا بعد باب.

هذا الفراغ المترامي الآن أمام البحر حيث كنا، تطل عليه اذا عدتُ أدراجي مجمعاتٌ سكنية ضخمة متعددة الطبقات بمواقف سيارات لوافدين لايقرأون الصحف، لايعرفون ناجي العلي، غامضين،

لهذا السبب لن يكون من مهمة الحكاية الإمساك بالمتطايرين الذين عاشوا بلا سابق تدبير واختفوا محرومين حتى من أبسط خريطة فقط، بل والتقاط شتات أحلامهم، هذا إن حلموا أو فكروا بالحلم، واستنطاق من ظلوا صامتين زمناً طويلا يمتد حتى هذه اللحظة، أي لحظة مروري تحت أشجار النخيل الهندي الباسق.
الأشجارُ لاتسمح لي بلمس مراوحها كما كنتُ أفعل، وكذلك هؤلاء الذين عزف كل واحد منهم معزوفته المجهولة، وتخيل لنفسه في المرآة شبيهاً أو مئات الأشباه، وانتهى إلى زاوية من زوايا هذا العالم لاأستطيع الوصول إليها بعد أن تقطعت السبل وضاعت العناوين .. وهل تبادلنا العناوين ؟
كل ما أعرفه هو أن أبو عواد المتقلب على سريره كان دائم التفكيروالشجار مع الطشّ، وخرج ذات يوم بفكرة العمل على سفينة تصطاد السمك على شواطيء نيوزيلندة، وأن ساكن التجويف الذي احتفى بي ودبت فيه حيوية غير عادية حين فهم خطأ أنني من أبناء الكرمل، كان يتأنى في حديثه كمن ابتلع كل كتب التصوف الهندي، وهو يتناول كأسا من نبيذ يصنعه حسب وصفة مضمونة كما أسرّ لي، ولم يقل لي مرة إلى أين سيمضي ، وأن عاشق كامو الذي احتفظ بقصة عجيبة جاء بها من جبال عسير حيث مارس مهنة التعليم في جبالها، لجأ إلى عمّان ذات التلال الصخرية وبدأ برمي الحجارة على المارة، وأن صديقنا الشهير باسم النائم، عامل المطبعة الملوثة أصابعه بالحبر دائماً، والوحيد الذي كان يصلي، بل ويكثر من الصلاة في غير أوقاتها، استيقظ ذات يوم فوجد إلى جانب سريره زائرة مدهشة كأنها هابطة من صورنساء ممتلئات يقصها جمال بعناية مثلما يقص فضاءً حول تمثال ويلصقها بشهية على الحائط بجوار سريره، فقرر أن يتزوجها فوراً.
هل عاد إلى نومه ؟ كل ما أعرفه أن النمّول الحريص على تجميع الكتب من دون غاية محدّدة، وتسجيل ورواية أخبار ونزوات سكان الفيلا، ظل يؤكد دائما لأي زائر أن النائم حتى حين كان يأتي دوره في كنس الغرفة يتناول المكنسة ويتحرك وهونائم أيضاً، بل وحدث عنه أنه كان في رحلاته معهم إلى ألمانيا يظل نائماً، ثم :
" صحا لأول مرة في حياته، وما أن وجد الزائرة المدهشة، وكانت في الحقيقة، أخت جمال، حتى أخذها فوراً إلى المحكمة وعقد قرانه عليها، وغادر الفيلا"
وأضاف ناظرا إلى سريره الخالي :
" وعاد إلى النوم " .
لاأحد يستطيع لمس رؤوس الأشجار العالية، وكذلك لايستطيع أحد لمس أطراف الذاهبين فرادى وجماعات، وإن كنت أفضل الحديث عنهم فرادى لاجماعات، فهم ينأون كما لو أنهم أصبحوا سكان كواكب ممعنة في رحيلها باتجاه السديم، لاتروي أخبارهم سوى أقاويل من هنا وهناك نصادفها بين سنة وأخرى ، وفي هذه العاصمة أو تلك .
من هذه الأقاويل أن علي الطش سقط قتيلا في بيروت على أطراف خلدة مع بداية الاجتياح الاسرائيلي حين كانت متاريس بيروت تتقاصف بالصواريخ والقذائف والشتائم، فقد اعتاد بعض سكان الفيلا بين فترة وأخرى، وحين تنجز رحلة الصيف ذهاباً وإياباً بين ألمانيا والكويت، الالتحاق بفصيل من فصائل المقاومة، النمول بجبهته الشعبية الأفضل كما يرى بين العربات لنقل البؤساء، والطش بفتحه التي تسحره أناشيدها، والنائم بمنظمته الغامضة التي لايبوح باسمها حسب التعليمات، فيقاتلون حيث يضعونهم متنقلين من شارع إلى آخر إلى أن يشعروا بالملل فيعودون إلى الفيلا ومعهم بضع رصاصات للذكرى تُصادر في المطار أحياناً وتتدخل منظماتهم لإطلاق سراحها وسراحهم .

ومن هذه الأقاويل أيضاً أن أبو عواد يرقد الآن في أعماق بحر بعيد تمرح حوله الأسماك التي لايراها لأن الظلمة اخترقت منذ زمن طويل عينيه وأذنيه وفمه، وما عاد سوى جمجمة مغروسة في الرمل وعظام محطمة أو منخورة.
ومنها أن الميت لم يمت، بل صحا ذات يوم ولم يعد يعرف طريقه إلى الفيلا، فضل الطريق وما زال ضالا حتى اليوم، لاأحد يعرف هل انتهى به المطاف بلا اسم في مستشفى للأعصاب أم اتجه إلى الصحراء المترامية الأطراف وراء حدود البصر؟ .
وإلى أين انتهى المطاف بعاشق كامو، أو ميرسول كما كان يحب أن يطلق على نفسه؟
لاأعتقد أنه انتهى إلى زنزانة ينتظر حكماً بالاعدام وتثيرالنجومُ دموعه مثلما أثارت دموع ميرسو الغريب، بطل رواية كامو ، فمن يثرثر كثيراً لايستطيع اقناع أي قاضٍ أنه قتل فعلا ، بل ربما يقضي حياته يلف لفافات التبغ بيديه ملتذا ، أو يرمي الحجارة من فوق التلال الصخرية على رؤوس الناس سعيداً أنه كائن خفي لايراه أحد .
ولكن أعجب الأقاويل جاء على لسان ضابط من فتح سمين تدرب في كوريا الشمالية التقيته في دمشق، فحدثني عرضا عن عدد قليل من الفدائيين الفلسطينيين أرسلهم عرفات إلى كمبالا لإنقاذ الجنرال الافريقي الضخم عيدي أمين اعترافا بفضله لأنه طلب من غولدا مائير خلال حرب اكتوبر أن تحمل سراويلها وتهرب من فلسطين بسرعة، وقيل لهم يومها إن بندقية كلاشينكوف واحدة يمكن أن تسيطر على الأرض الممتدة من كمبالا إلى دار السلام في تنزانيا :
" وهل سيطروا فعلا ؟ "
" سيطروا ؟! ضاعوا في الغابات هاربين، نجا بعضهم وأنا منهم بحقيبة عملات اكتشفتُ في مابعد أن لاقيمة لها، وغرق بعضهم في المستنقعات"
وذكر لي هذا الذي نجا مع الهاربين اسم أحد الغرقى؛ صديقنا أحمد النمّول مسجل وراوية نزوات وأخبار سكان الفيلا .

---

* أصوات الصمت، دار مسعى& الدار العلمية- ناشرون ، بيروت، 2009